الامريكية كالدخان والملابس والسيارات وغيرها من البضائع الاستهلاكية .

ان المحيط الامبريالي يخضع لانظمة كومبرادورية مرتبطة بالمركز ، انظمة شبه برجوازية ، انظمة وسيطة ... فما هو الطابع الخاص للثقافة في ظل هذه الانظمة ؟

لا شك ان استيراد السلع الثقافية ، لن يكون حلا دائما ، وذلك لان الامبريالية تريد ان تنشىء ثقافة محلية في المحيط تعكس ارتباط الاقتصاد المحيطي بالمركز الامبريالي . فالى جانب افلام الجنس الرخيص والرعب والعنف الاجنبية يجب ان تنشأ افلام جنس رخيص ورعب محلية ، الى جانب استعمال القيم الرجعية الغيبية في مجتمعات شبه برجوازية . ان التكنولوجيا ستستعمل في بلادنا لترسيخ المفاهيم الميتافيزيقية وتنشيط الروح الاستهلاكية ....ستنشأ ثقافة تروج لمجتمع استهلاكي تماما ، وقد بدأت بهذا الاتجاه بعض الاقلام الكومبرادورية امثال المثقف الكومبرادوري « محي الدين صبحي » الذي بدأ بترجمة مقالات تعلم الكاتب العربي كيف يكتب رواية « جماهيرية » تقرأ في استراحة المطار ، وفي القطار مثلا . وتؤكد هذه الاقلام على ان الاديب الناجح هو الاديب الذي يبيع كتابه اكثر كمية من النسخ ، بينما كان الامر سابقا بالعكس تماما ، فالاديب الجيد غالبا غير مقروء سوى من النخبة المثقفة .

ان هذا الفهم الامبريالي للثقافة ، يتم تبنيه من قبل نفس الاقلام التي كانت سابقا « تقدمية » والان تتزاحم على كسب رضا مجلات خليجية ونفطية امثال الكاتب المصري الذي عرفناه تقدميا ! « احمد بهاء الدين » الذي اصبح الان رئيس تحرير مجلة « العربي » الكويتية الشهيرة برجعيتها .

سيتم تحرير دور النشر من قبضة الدولة البيروقراطية ، وتشجيع دور النشر الخاصة ، باعتبار صاحب دار النشر واحدا من رموز البرجوازية الكومبرادورية ودعائم نظامها السيلسي ... ، وسيكون النتاج الثقافي قوة عمل ذهنية تباع لصاحب العمل « الناشر » وفقا لشروط الاخير . وباعتبار اصحاب دور النشر غيورين على مصالح النظام الكومبرادوري فستكون شروطهم لشراء النتاج الثقافي شروطا مرتبطة بالوضع الاقتصادي والسياسي في البلاد . لذلك على الكاتب :

١ - سياسيا : معاداة الافكار الشيوعية والاشتراكية والوطنية التحررية ، وتشجيع المجتمع الرأسمالي باعتباره يشجع حرية الاستغلال والمبادرة الفردية ووصفه بالمجتمع الديمقراطي المطلوب ! ... ، وتشجيع الافكار الدينية والميتافيزيقية التي تؤكد حتمية المجتمع الطبقي ، وشرعية الاستغلال والقهر والتسلط .

٢ - اقتصاديا : الدعاية للمنتوجات الاستهلاكية الاجنبية ، وهنا يتم تشجيع الكاتب ماديا من قبل الشركات المنتجة ودور النشر او الصحف الناشرة .

٣ - اجتماعيا : دغدغة العواطف والغدد الدمعية والتناسلية بهدف اشغال النشء الجديد بأمور غرائزية ، وادارة ظهره للقضايا الوطنية والطبقية ... وذلك بكتابة قصص جنسية رخيصة وقصص عاطفية تدر الدموع ، وتشجيع روح العنف والرعب ، وذلك بهدف خلق جيل مريض سهل الانصياع والرضوخ لمتطلبات الرأسمالية المرتبطة بالمركز الامبريالي .

وبما ان الناشر يهدف الربح ايضا ، فهو يطالب بنتاج مقروء او مسموع ، وذلك يتطلب من الكاتب البحث عن الافكار الرائجة بين جماهير القراء والمشاهدين والمستمعين . وليس الافكار التي تحتاجها هذه الجماهير كضرورة من اجل تطورها ... على الكاتب ان يساهم في «انتاج التخلف والتبعية» باعتباره جزءا من السوق الاستهلاكية . وخادما لخدم الامبريالية .

حذار من البرجوازيين الصغار

مع هيمنة البرجوازية الصغيرة وتخلي انظمتها البيروقراطية عن مفاتيح المنطقة الاقتصادية والسياسية والثقافية بالتالي لصالح البرجوازية الكومبرادورية ، ورضوخا لطبيعة البرجوازي الصغير الانتهازية ، انحاز التيار الاكبر من المثقفين البرجوازيين الصغار نهائيا لصالح البرجوازية الكومبرادورية ، بينما حاول جزء اخر منهم امتطاء جواد « التقدمية » الهرم والتخييل به امام قصر الطبقة الجديدة !.

ان وزراء الثقافة الكومبرادوريين ، سيلوحون باشفاق لهؤلاء « التقدميين » ،

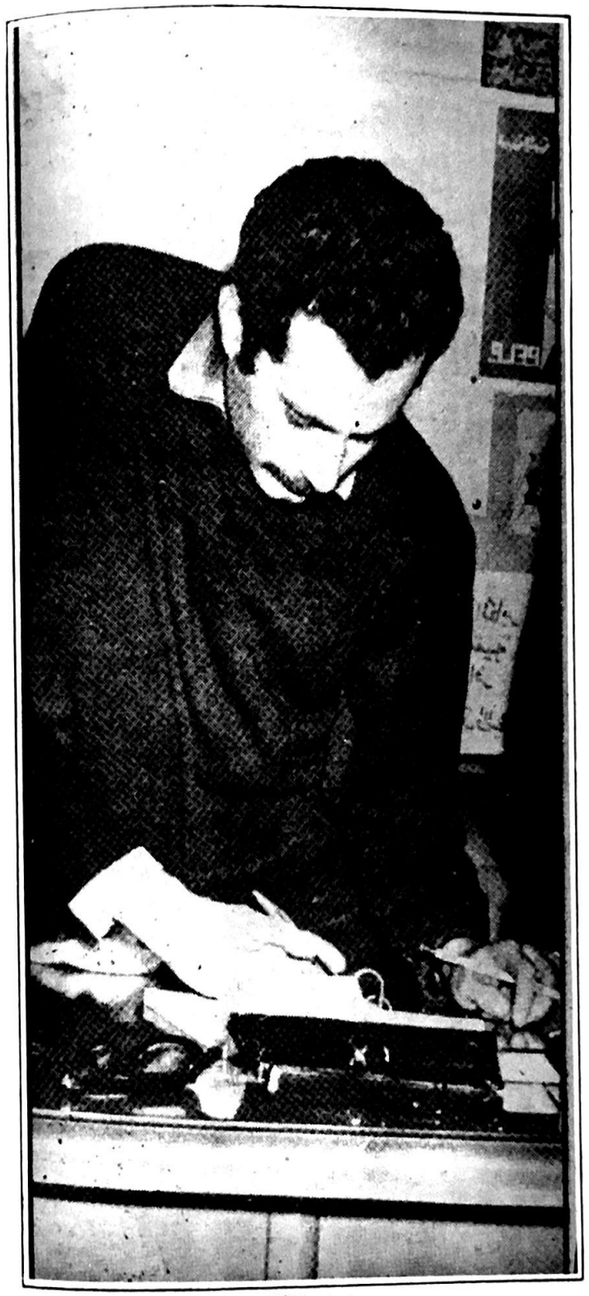

غسان كنفاني

ويقولون : « استمروا في تضليلكم ، اننا نحتاج اليكم ايضا ... طالما لا ضرر من لغوكم ... بل فيه فائدة نجنى » .

ان دور هؤلاء هو الدمغجة لصالح النظام الجديد ، وذلك من خلال انتقاده في نتاجات ثقافية وفنية ، ولكن في اطار فصل الشكل عن المضمون . وهكذا يستمر هؤلاء المثقفون في لعبتهم التي مارسوها في ظل النظام البرجوازي البيروقراطي . ولكن الان لصالح بقائهم كأفراد مهنة اجادوها ويرغبون في استمرار ممارستها . وهي ادعاء تمثيل التقدم والاشتراكية في بلاط خدم الامبريالية .

وهم بذلك سينالون مكافأة من النظام الجديد ، باعتبارهم يؤكدون

« ديمقراطية » انظمة المحيط الامبريالي . ويقنعون انفسهم بأنهم ليسوا رجعيين ، بينما تستمر الجماهير كعادتها في تجاهلهم وتجاهل اشكالهم الغريبة الغامضة التي يدعون احتواءها على ترياق التقدم والعدالة الاجتماعية .

من اجل ثقافة بروليتارية

اصبح واضحا لدينا ان الثقافة كانت ولا زالت سلاحا طبقيا تشهره الطبقات ، الواحدة في وجه الاخرى . والثقافة وضمنها الادب والفن هي البناء الفوقي الذي يعكس علاقات الانتاج والبناء التحتي المادي لاي مجتمع طبقي . الثقافة البروليتارية هي الثقافة التي تعكس الصراع الطبقي ، وتفتح امام البروليتاريا افاقا ثورية تساعدها على النهوض الثوري بوجه العدو الطبقي والوطني .

ان المثقفين البروليتاريين العرب يواجهون مهمات خطيرة ، وذلك لكونهم امام غزو ثقافي امبريالي ، لم يعزل الثقافة عن الجماهير ، بل وظف الثقافة في خدمة مصالحه في استغلال وتشويه وتخدير حركة الجماهير . ان المثقف البروليتاري يقف الان اعزلا من الاسلحة الرسمية الشرعية ، فدور النشر مغلقة في وجهه وكذلك وسائل الاعلام الرسمية ... وما عليه سوى امتلاك وسائله الخاصة في التصدي لهذا الغزو الثقافي المدجج بالعلم والتكنولوجيا .

ان المثقف البروليتاري سيصاب باليأس اذا وقف وحيدا ، ولربما يتراجع امام الحصار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي سيصدمه ، وكذلك الحملة التي ستشنها ضده الاحزاب التحريفية ومثقفوها واصفة اياه باليساري الطفولي والمتطرف ... الخ .

لذلك لا بد للحركات السياسية البروليتارية من تحمل مهماتها في التصدي للثقافة الكومبرادورية بثقافة بروليتارية ثورية ، وان يصبح النشاط الثقافي جزءا متمما للنشاط الثوري الايديولوجي والسياسي . ان العلاقة بين المثقف البروليتاري وتنظيمه البروليتاري علاقة عضوية وجدلية ، حية ومتبادلة التأثير ... فلا ثقافة بروليتارية دون حركة بروليتارية ثورية . فعلى التنظيم البروليتاري والمثقفين البروليتاريين وضع النقاط التالية نصب اعينهم :

١ - المثقف البروليتاري هو عضو في الحركة البروليتارية الثورية .

٢ - المثقف البروليتاري ملتزم فكريا وسياسيا وتنظيميا وثقافيا بالحركة البروليتارية .

٣ - على الحركة البروليتارية ان تتبنى الفهم اللينيني للثقافة البروليتارية واعتبارها الجزء الادبي من القضية البروليتارية العامة .

٤ - مهمة الثقافة البروليتارية نقل الوعي الثوري الى جماهير البروليتاريا لذلك لا يمكن فصل الشكل عن المضمون في الفن البروليتاري .

٥ - على الثقافة البروليتارية تعرية سموم الثقافة الكومبرادورية ونزع المعاطف التقدمية عن هياكل البرجوازيين الصغار .

٦ - المثقف البروليتاري مناضل سياسي وثقافي ، لذلك تقع على كاهله مهام التصدي للثقافة السائدة ، فيجب ان يكون مؤهلا سياسيا وفكريا لذلك .

٧ - على الحركة البروليتارية الثورية ان تعتبر النضال الثقافي جزءا من برنامجها السياسي ، وان تدعم بجدية مواقع المثقفين البروليتاريين وتؤمن لهم فرصة التواصل مع الجماهير البروليتارية ... كما عليها ان تقوم بطبع النتاجات الثقافية البروليتارية ضمن برنامج مطبوعاتها الثورية ، وعلى عاتقها ايضا يقع عبء توزيع المطبوعات .

٨ - على الحركة البروليتارية تشجيع الفن السينمائي البروليتاري وخلق كوادر فنية في السينما والمسرح والادب والفن التشكيلي ، لتشكيل فرق فنية ثورية تشن حرب عصابات ثورية ضد المؤسسات والافكار الثقافية الكومبرادورية .

٩ - على المثقفين البروليتاريين مقاطعة المؤسسات الثقافية الرسمية والتجارية .

١٠ - على المثقفين البروليتاريين من خلال نتاجاتهم :

أ - فضح البرجوازيات الكومبرادورية وخيانتها الوطنية ، وتسلطها واستغلالها لجماهير البروليتاريا العربية .

ب - التصدي للثقافة الاستهلاكية القائمة على دغدغة الغرائز لدى جماهير البروليتاريا ، ونشر وعي ثوري بخصوص القضايا الاجتماعية والعاطفية .

ج - التصدي للافكار الغيبية التي تؤكد حتمية المجتمع الطبقي وشرعية الاستغلال والقهر والتسلط .

د - طرد مفاهيم علمية بروليتارية بخصوص علم الجمال ، والتصدي لاراء النقاد الكومبرادوريين والبرجوازيين الصغار والتحريفيين .

هـ - التصدي للمفاهيم البيروقراطية بخصوص الادب والفن ، والتضامن مع الفن البروليتاري الثوري في العالم ، وايصاله الى جماهير البروليتاريا العربية .

و - اعادة طرح ثقافتنا التراثية على مشرحة النقد البروليتاري ، وغربلة اذهان الجماهير من الافكار والاراء الزائفة بخصوص التراث ، وكشف حقيقته على ضوء معطيات العلم والفكر البروليتاري .

لقد كان لينين دائما يؤكد على ضرورة انشاء ادب بروليتاري حزبي ، وقد قال :

« فيم يكمن مبدأ الادب الحزبي هذا ؟ انه يكمن ليس فقط في ان الادب لا يمكن ان يكون بالنسبة للبروليتاريا الاشتراكية وسيلة ربح لاشخاص او مجموعة من الناس ، ولكنه لا يمكن ان يكون على وجه العموم قضية فردية ، مستقلة عن القضية البروليتارية العامة . فليسقط الادباء « الفوق الناس » .

ان على الادب ان يصبح جزءا من القضية البروليتارية العامة ، « عجلة صغيرة وبزالا » في آلة اشتراكية ديمقراطية واحدة وحيدة وعظيمة ، تحركها الطليعة الواعية للطبقة العاملة كلها .

على الادب ان يصبح جزءا لا يتجزأ من العمل الحزبي الاشتراكي الديمقراطي الموحد والمنظم والمخطط » .

الجبهة قدمت نموذجا

وان لم تقدم الجبهة الشعبية تصورا نظريا دقيقا لدور الادب في الثورة ، فقد اخرجت من صفوفها كاتبا مناضلا يعتبر الان من اهم كتاب العصر الحديث ، وفي طليعة ادباء التحرر الوطني ...

لقد مثل الرفيق الشهيد « غسان كنفاني » بجدارة والى الان الجزء الادبي والفني من الجبهة الشعبية ، ويخطئون كثيرا اولئك الذين يحاولون الفصل بين « غسان » والجبهة في محاولة غبية لتكريس مفاهيم برجوازية للادب والفن .

ان فهما علميا لعبقرية الرفيق « غسان كنفاني » يستوجب استيعاب وفهم العلاقة العضوية بين غسان الكاتب المناضل والجبهة كاطار يحدد من خلاله هدف نضاله وآفاق اساليبه الفنية .

لقد اثر كثيرا تبني الجبهة الشعبية للفكر الماركسي اللينيني ، في مضمون ادب « غسان كنفاني » وبالتالي في شكل هذا الادب ... كما اثر غسان الاديب المناضل كثيرا في قواعد الجبهة الشعبية وكوادرها من خلال قصصه ورواياته ولوحاته التشكيلية ومقالاته السياسية ، لقد ساعدت الجبهة غسان على ان يبلور توجه الجبهة الثقافي على طريق فلسطين ... وبغسان كنفاني عرفت الجبهة الشعبية كيف تستعمل الادب سلاحا من اجل التعريف بالقضية الفلسطينية ...

واستنادا الى النظرية البروليتارية الثورية استطاع « غسان كنفاني » ان يحدد باكرا قوى الثورة الفلسطينية واعداءها ...

استطاع ان يرسم الخريطة الطبقية لهذا الشعب وثورته ...

واستطاع ان يحدد دور الرجعية العربية في المؤامرة الامبريالية الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني ...

وبوضوح ثوري في الرؤيا ، قدم غسان وببساطة عبقرية في الاسلوب ، الى الشعب الفلسطيني اولا والى الشعب العربي ثانيا « رجال في الشمس » ، و « ام سعد » ...

ولا يختلف اثنان على ان « ام سعد » مثلا ليست اقل شأنا من « ام » غوركي ... على صعيد المستوى الفني ام على صعيد الانتماء الى الادب البروليتاري الثوري ...

ان النموذج الذي قدمته الجبهة الشعبية ، لا يتكرر بقرار من مكتبها السياسي مثلا ... ولكن استمرار الجبهة في تأمين الشرط اللينيني للادب البروليتاري الثوري سيترك الباب مفتوحا لنماذج اخرى ان تعلن عن نفسها بقوة .

بيروت ١٩٧٨